وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

الدلالات الشرعية على العلوم الطبيعية

بحث من إعداد
الدكتور ماجد الدرويش

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

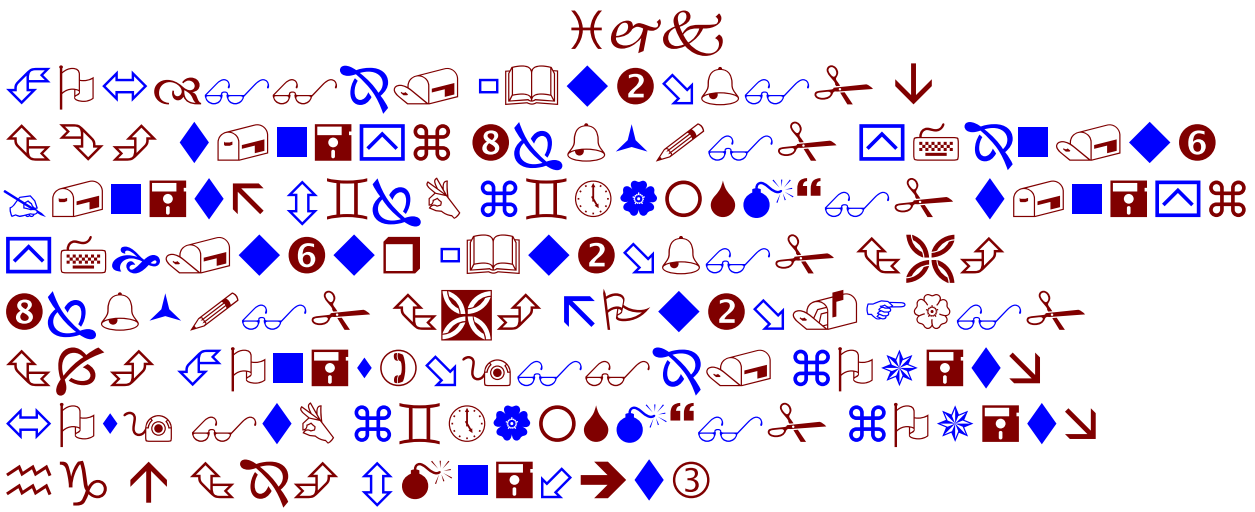

الدلالات الشرعية على العلوم الطبيعية[1].

الحمد لله، والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه، وبعد:

فإن فلسفة التعليم عند أيّةَ أمة يجب أن ترتبط ارتباطاً مباشراً بأهدافها الكبرى.

ونحن، الأمةَ المسلمةَ، هدفنا الأسمى العام: هو تحقيق العبودية لله سبحانه وتعالى، ووسيلة العبادة العلم،كما قال تعالى:

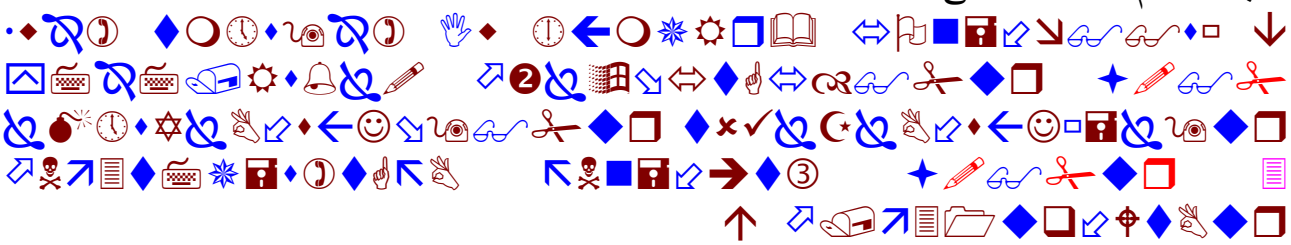

ولذلك وجدنا أن العنوان الأول لهذه الرسالة كان لإيضاح هذا الارتباط الوثيق بين الوسائل والأهداف، حيث كانت أولُ آية تنزل على قلب نبينا صلى الله عليه وعلى آله وسلم هي قوله تعالى:

[1] - ينظر في تعريف العلوم الطبيعية: " إرشاد القاصد إلى أسنى المقاصد لابن الأكفاني، ص: 61-62.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QURANIC THOUGHT

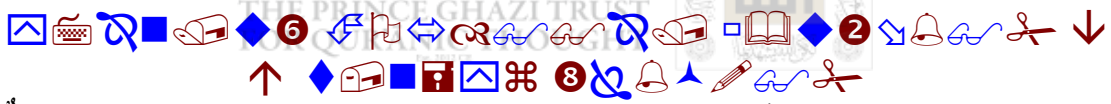

فالقراءة ليست مجرد فك للأحرف بقدر ما هي فهمٌ للحقائق المحيطة بنا، ودراسةٌ للسنن والقوانين التي تحكم فلسفة التغيير والظهور في الأرض. فهذه القراءات يجب أن تكون وسيلة لمعرفة الله سبحانه حق معرفته: لمعرفة أسمائه، وصفاته، وأفعاله، سبحانه، فهي مفاتيح الخضوع له لأنه هو الخالق الموجد للدنيا وما فيها؛ فمن حقه على خلقه أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً. من هنا كان ترتيب العلوم عند علمائنا يتقدمه علم التوحيد، ذلك أن أي علم يَشْرُفُ بشرف ما يرتبط به ، فإذا كان علمُ التوحيد يبحث في ذات الله سبحانه من حيث إنه الخالق الرازق المحيي المميت، عرفنا شرف هذا العلم، وعرفنا لم كان هو المفتاحَ لسائر العلوم، أو الميزانَ الذي توزن فيه وبه سائر العلوم.

ومن هنا كانت تلكم المكانةُ الساميةُ للعلم في المفهوم الإسلامي، لأنه الموصل إلى الغاية من وجود جنس المكلفين على الأرض والتي تتلخص في ابتلاء الله سبحانه وتعالى لعباده وامتحانهم بالإيمان والإسلام والعبادة، قال الله عز وجل:

وكانت تلكم المكانة للعالِم في الإسلام، قال تعالى:

ومع أن الذين أوتوا العلم هم من المؤمنين، إلا أن الآية خصتهم بالذكر، بعد دخولهم بعامة تحت الذين آمنوا، زيادةً في بيان علو مكانتهم وتميزهم عن سائر المؤمنين.

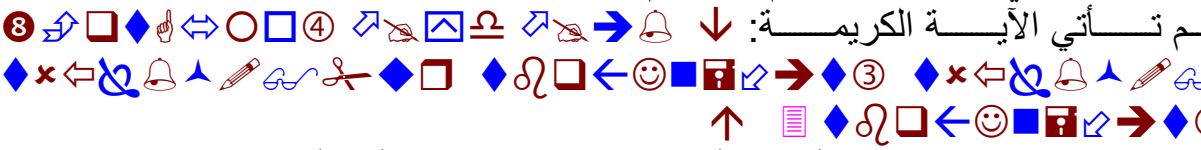

لتؤكد هذا التمايز. وسببه الأساس: أن الذين يعلمون يفترض أنهم أكثرُ الناس خشية لله تعالى، وخضوعا له، وقد عبر القرآن عن هذه الحيثية، فقال :

وكلمة "العلماء " لا تقتصر فقط على علماء الشريعة – وإن كانوا أكثر من تعنيهم- وإنما تتسع لتشمل سائر العلماء، فمن صَدَقَ منهم أدرك بتفوقه العلمي حقيقة هذا الوجود وأنه أثرٌ عن قدرة الله عز وجل الذي يجب أن يطاع فلا يعصى..

يقول ديكارت العالم الفرنسي المعروف :

(إني مع شعوري بنقص ذاتي أُحِسُّ في الوقت نفسه بوجوب وجود ذات كاملة، وأُراني مضطراً للاعتقاد بأن هذا الشعورَ قد غرسته في ذاتي تلك الذاتُ الكاملة المتحليةُ بجميع صفات الكمال، وهي: الله).

ويقول إسحاق نيوتن العالم الإنكليزي الشهير، ومكتشف قانون الجاذبية:

(لا تشُكُّوا في الخالق، فإنه مما لا يعقل أن تكون المصادفات وحدها هي قائدة هذا الوجود)

ويقول هرتسل الفلكي الإنكليزي:

This file was downloaded from QuranicThought.com

(كلما اتسع نطاق العلم ازدادت البراهين الدامغة القوية على وجود خالق أزلي لا حدّ لقدرته ولا نهاية: فالجيولوجيون، والرياضيون، والفلكيون، والطبيعيون، قد تعاونوا على تشييد صرح العلم، وهو صرح عظمة الله وحده).

ولو ذهبنا نستقصي لطال بنا الكلام، ويكفي الرجوع إلى كتاب "الله يتجلى في عصر العلم" لمعرفة أن العلم يوصل إلى معرفة الله عز وجل. بل إن الله سبحانه وتعالى جعل العلم وسيلة لمعرفته،فقال: ﴿ [illegible] بلى، كفى بالله شهيداً.

فإذا عُرف هذا عُرف مضمون قول الله تعالى ﴿ [illegible] ﴾

وحتى لا يجنح العقل بعيداً في بداية الخلق: كيف كانت؟ قال لنا: ﴿ [illegible] ﴾

وهذا في زمن ما كان يخطر على بال أحد أن الجنين يتطور من نطفة إلى علقة إلى مضغة...إلخ.

وهذا مفتاح معرفي هام أعطانا إياها ربنا عز وجل، وأعطانا إياها نبينا صلى الله عليه وسلم، يمكننا من تسجيل السبق العلمي الذي يؤَمِّنُ لأصحابه التفوق والظهور.

هكذا فهم علماؤنا السابقون هذه الحقائق فانطلقوا من خلالها لتعليم الناس وإرشادهم وتوطئة الأرض لهم ليعمروها بطاعة الله عز وجل، فلم يُفَرِّقوا بين علم وآخر من حيث التعلُّم، وإن فَرَّقوا من حيث الأهمية. نعم قسموا العلوم إلى قسمين أساسين:

القسم الأول: علوم الشريعة: من عقائد، ومصطلح، وتفسير، وفقه، ولغة...

القسم الثاني: علوم دلّت عليها الشريعة وجعلتها من وسائل إعمار الأرض: كالطب، والهندسة، والتاريخ والجغرافيا، والفلك...وما إلى ذلك مما نسميه نحن اليوم العلوم المدنية، أو الطبيعية..

وهذا التفريق خطأ في عرفنا الشرعي، والتقسيم الصحيح هو ما ذكرت: (علوم الشريعة، وعلوم دلت عليها الشريعة)، فكلها مطلوبة، وكل علم منها له دوره في تحقيق العبودية لله سبحانه وتعالى وإعمار الأرض.

ومعلوم من التاريخ بالضرورة مدى إسهام علماء المسلمين عبر العصور في وجود الحضارة الحقة التي تلبي حاجات الناس وتقوم على مصالحهم. وقد كتب في ذلك الكثير: والذي يهمنا في هذاهو إبراز المنهجية الإسلامية الفريدة في تشكيل عقل الفرد وتوجيهه، حيث تعتني به منذ صغره، ثم تسير معه شيئاً فشيئاً ليتحول إلى عنصر مؤثر وفاعل ومحرك في المجتمع، وناشرٍ للخير لجميع الخلق دون استثناء، (فالخلق كلهم عيال الله فأحب الخلق إلى الله أنفعهم لعياله)[2].

وقد انطلق علماؤنا في ميدان العلوم مسلّحين بتوجيهات قرآنية ونبوية، شكلت حافزا كبيرا لديهم من التسابق إلى مرضاة الله سبحانه في نفع الناس. ولذلك أحببت أن أجمع بعضاً من هذه التوجيهات النبوية التي دلّت على ضرورة الأخذ من هذه العلوم بالقدر الذي يحقق الإعمار في

[2] - أخرجه الطبراني في المعجم الكبير عن ابن مسعود رضي الله عنه. برقم 10033 : ج 10 / ص 86 .

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QURANIC THOUGHT

الأرض، مبتدئاً بما كانت دلالته ظاهرة لا جدال فيها، وصولا إلى ما كانت دلالته خفية تحتاج إلى بيان. ومقدِّماً لتعريف موجز عن المراد بالعلوم الطبيعية عند المسلمين. والدافع إليه هو ما بلغني عن بعض الشباب من تصورات خاطئة حول العلم الطبيعي وأنه بالنسبة إليهم (علم لا ينفع وجهل لا يضر)، ولو أن سلفنا فكروا بهذه السلبية لما كانت حضارة ولما كان ظهور. ومن أجل أن أبين لهؤلاء المساكين خطأ مسلكهم جمعت هذه الرسالة اللطيفة. عارضاً فيها لمفهوم العلم الطبيعي عند علمائنا رضوان الله تعالى عليهم، ومستعرضاً جملة من الأدلة التي تفيد وتدل وترشد إلى الأخذ بالعلم الطبيعي .

وبداية لا بد من تعريف العلم الطبيعي: ما هو؟

العلم الطبيعي

قديماً كتب علماء المسلمين في العلوم وتصنيفاتها وتعريفاتها، ومن هذه المؤلفات كتاب (إرشاد القاصد إلى أسنى المقاصد) للإمام محمد بن إبراهيم بن ساعد الأنصاري[3]، من علماء القرن الثامن الهجري، وكتابه هذا يعتبر أول كتاب ينظم العلوم ويعرّف بها، مقسِّماً إياها إلى قسمين:

القسم الأول: العلوم الشرعية، وتحوي العلوم الآتية: الأدب، اللغة، التصريف، المعاني، البيان، البديع، العروض، القوافي، النحو، قوانين الكتابة، قوانين القراءة، المنطق، الإلهي، علم النواميس(الوحي)، القراءات، رواية الحديث، التفسير، دراية الحديث، أصول الدين، أصول الفقه، الجدل، الفقه.

القسم الثاني: العلم الطبيعي، ويندرج تحته من العلوم: الطب، البيطرة، الفراسة، تعبير الرؤيا، أحكام النجوم، السحر، الطلسمات، السيمياء، الكيمياء، الفلاحة، ثم الهندسة وما يتعلّق بها، ثم علم الهيئة(الجغرافيا والفلك)، ثم علم الحساب، فالموسيقا، فالسياسة، فالأخلاق، فتدبير المنزل.

هذه هي العلوم وتقسيماتها عند علماء الإسلام بشكل عام. وقد كان ابن الأكفاني نفسه طبيباً، كما كان عالماً عارفاً بالجواهر والأحجار الكريمة والعقاقير، بالإضافة إلى بروزه في علم الرياضيات. مع معرفته بعلم التواريخ والأدب، إلى جانب العلوم الشرعية. فهو بحق مثال للعالم الموسوعي. لذلك سوف أعتمد في تصنيف العلم الطبيعي في هذا البحث على كتابه معتمداً على تعريفه للعلم الطبيعي، وهو:

" علمٌ يبحث فيه عن أحوال الجسم المحسوس، من حيث متعرِّضٌ للتغيُّر في الأحوال والثباتِ فيها"[4]

فهو بهذه الحيثية يساوي في أيامنا ما تعارف عليه أهل الإختصاص بأنه العلم التجريبي الذي يتناول خصائص الأشياء المحسوسة. ومنها:

علم الطب والصيدلة وما يتصل بهما

(تعريف علم الطب)

جاء في (عون المعبود شرح سنن أبي داود) :" الطب، بتثليث الطاء المهملة، قاله القسطلاني، : وهو علم يُعرَف به أحوال بدن الإنسان من الصحة والمرض.

---

[3] - ابن الأكفاني (000-749هـ /000 -1348م)
محمد بن إبراهيم المصري بن ساعد الأنصاري شمس الدين أبو عبد الله السنجاري، طبيب، وعالم جواهر، اشتهر في القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي ولد في بلدة سنجار بالعراق وإليها نسب. كان أبوه يمتهن حرفة صناعة الأكفان فعرف بابن الأكفاني. طلب العلم فتفوق في عدة فنون وأتقن الرياضيات والحكمة، فكان إماما في الفلك والهندسة والحساب. كما كان من أفضل علماء عصره وأعلمهم بدراسة العقاقير الطبية وأنجحهم في مداواة الناس، ومستحضرا للتواريخ والأخبار، وحافظا للأشعار، وله في فنون الآداب تصانيف كثيرة.

[4] - إرشاد القاصد: ص: 61 .

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QURANIC THOUGHT

قال في الفتح: ونقل أهل اللغة أن الطب بالكسر يقال بالاشتراك للمداوى وللتداوي وللداء أيضاً، فهو من الأضداد، ويقال أيضا للرقى، والسحر، ويقال للشهوة، ولطرائق ترى في شعاع الشمس، وللحِذْقِ بالشيء.

والطبيب: الحاذق في كل شيء. وخُصَّ به المعالج عرفاً. والجمع في القلّة: أطبة، وفي الكثرة: أطباء.

والطب نوعان: طب جسد، وهو المراد هنا، وطب قلب، ومعالجته خاصة بما جاء به الرسول عليه الصلاة والسلام عن ربه سبحانه وتعالى.

وأما طب الجسد فمنه ما جاء في المنقول عنه صلى الله عليه وسلم، ومنه ما جاء عن غيره، وغالبه راجع إلى التجربة".

وقال ابن الأكفاني في الإرشاد: " علم الطب: علم يبحث فيه عن بدن الإنسان من جهة ما يُصِحُّ ويُمرِضُ لالتماس حفظ الصحة وإزالة المرض. وموضوعه بدنُ الإنسان وما يشتمل عليه .. "[5]

فمما جاء في المنقول عن النبي صلى الله عليه وسلم:

ما أخرجه الإمام الحافظ محمد بن حِبّان البستي رحمه الله تعالى في كتاب الطب من صحيحه[6] بسنده إلى أسامة بن شريك رضي الله عنه، قال : شهدت النبي صلى الله عليه وسلم والأعراب يسألونه: يا رسول الله! هل علينا جناح في كذا؟ مرتين، فقال: (عباد الله! وضع الله الحرج، إلا امرؤ اقترض من عرض أخيه شيئاً فذلك الذي حرج) . قالوا: يا رسول الله! فهل علينا جناح أن نتداوى؟ فقال: (تداووا عباد الله! فإن الله لم يضع داءً الا وضع له دواءً). قالوا: يا رسول الله! فما خير ما أعطي العبد؟ قال: (خلق حسن). قال سفيان الثوري رحمه الله تعالى:" ما على وجه الأرض اليوم إسناد أجود من هذا". وأخرجه الترمذي في كتاب الطب من سننه وقال: وفي الباب عن ابن مسعود، وأبي هريرة، وأبي خزامة عن أبيه، وابن عباس. وهذا حديث حسن صحيح .

وأخرج ابن حبان أيضاً بسنده إلى جابر بن عبد الله، عن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، قال: (إن لكل داء دواءً، فإذا أصيب دواءُ الداءِ برأ بإذن الله).

وبسنده إلى سيدنا عبد الله بن مسعود رضي الله تعالى عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (إن الله لم ينَزِّلْ داءً إلا أنزل له دواءً، جهله من جهله وعلمه من علمه).

فهذه الأحاديث، وغيرها كثير، ترشدنا إلى ضرورة الأخذ بأسباب الاستشفاء، عملاً بقول رسولنا صلى الله عليه وسلم: (يا عباد الله تداووا)، وهذا يقتضي تعلم علوم عدّة، لأن ما لا يتم الواجب به فهو واجب، وهي:

-علم الطب وما يتصل به من تعرّف على الأمراض من خلال التشريح وغيره. فكل العلوم الطبية تذخل تحت هذا العموم.

-علم الصيدلة مع كل متعلقاته: من تركيب العقاقير، ومعرفة كنهها، وآثارها، والمقادير التي يجب أن تكون عليها. وهكذا فكل ما يتصل بالعلوم الصيدلانية يدخل تحت هذا العلوم .

-علم البكتيريا الحيّة: فإنه لا تخفى صلته بالطب والصيدلة. .. وهكذا. بل إن النصوص تُفهمنا أن علماء الطب والدواء مقصرون اليوم، رغم ما نراه من تقدم، لوجود أمراض لا يُعرَف لها حتى الآن أدوية.

وقد تنبه علماؤنا رحمهم الله تعالى إلى ذلك، فنجد كتب السنن تفرد كتاباً مستقلاً للطب، تتناول فيه وجوب التداوي مضافاً إلى أنواع الأدوية التي يمكن أن تكون مؤثرة في العلاج. مثال على ذلك

---

[5] - إرشاد القاصد إلى أسنى المقاصد: ص 63 .

[6] - 13 / 426 .

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QURANIC THOUGHT

(سنن الترمذي)، فقد أفرد فيه الحافظ أبو عيسى الترمذي كتاباً مستقلاً للطب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، نجد تحته أبواباً تتعلق بالتداوي والأدوية ووسائل المعالجة. منها مثلاً:

باب ما جاء في الحمية

باب ما جاء في الدواء والحث عليه

باب ما جاء ما يطعم المريض

باب ما جاء لا تكرهوا مرضاكم على الطعام والشراب

باب ما جاء في الحبة السوداء

باب ما جاء في شرب أبوال الإبل

باب ما جاء في كراهية التداوي بالمسكر

باب ما جاء في تبريد الحمى بالماء.

وهكذا، لو سبرنا كتب الحديث المختلفة لخرجنا بحصيلة واضحة بينة تتعلق بأهمية الطب في حياة الناس، وأنه من وسائل تحصيل ضرورة حفظ النفس في الشريعة الإسلامية.

وهذه مجموعة من الأحاديث النبوية المختارة من مصنف ابن أبي شيبة، كتاب الطب، تتعلق بالموضوع:

(باب) من رخص في الدواء والطب: فذكر بسنده إلى هلال بن يساف أنه قال: جُرح رَجُلٌ على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: (أُدْعوا له الطبيب)، فقال: يا رسول الله! هل يغني عنه الطبيب؟ قال: (نعم، إن الله تبارك وتعالى لم ينزل داء إلا أنزل معه شفاء) .

وبسنده إلى عمران العَمِيّ يقول: سمعت أنساً يقول: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (إن الله حيث خلق الداء خلق الدواء فتداووا) .

وبسنده إلى زيد بن أسلم، أن رجلا أصابه جرح، فاحتقن الدم، وأن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، دعا له رجلين من بني أَنْمار، فقال: (أيكما أَطَبُّ)؟ فقال رجل: يا رسول الله! أوَ في الطب خير؟! فقال: (إن الذي أنزل الداء أنزل الدواء).

حتى إن النبيَّ صلى الله عليه وسلم نهى عن استعمال الدواء غير المناسب، وأسماه خبيثاً:

فعن مجاهد عن أبي هريرة قال نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الدواء الخبيث .

وقد فسّره البعض بأنه الذي إذا علق قتل صاحبه .

وعقد الحكيم الترمذي الأصل الثاني والثمانين من نوادره[7] في أصل الأدوية و سر الحكمة في التداوي. فقال:

" فالطبائع تتغير بحدوث الأزمنة من الحر و البرد و فساد الهواء، فيصير داءٌ في الأجساد وتحدث في الجسد الأحداث من الطعم، وما يتعاطاه ابن آدم من قضاء الشهوات، واللذات، و النَّصَب، والسهر، والتعب، والهموم، وما يجتمع في الجسد من الدم، والمرة، والبلغم، و كل ذلك يحدث منه ما يتغير حاله، فيحتاج إلى دواء يسكن منه ما هاج، فهذا تدبير الجسد، فإذا تَرَك تدبيرَه ضيَّعه، كما لو ترك تدبير المعاش ضاع. فالتداوي حق و هو فعل الأنبياء عليهم السلام ".

وفي فتح الباري للحافظ ابن حجر العسقلاني[8]: في الباب الذي نحن بصدده:

أن الشفاء متوقف على الإصابة بإذن الله، وذلك أن الدواء قد يحصل معه مجاوزة الحد في الكيفية أو الكمية فلا ينجع، بل ربما أحدث داءً آخر. وفي حديث ابن مسعود الإشارة إلى أن بعض الأدوية لا يعلمها كل أحد، وفيها كلها-أي الأحاديث الواردة في هذا الباب- إثبات الأسباب، وأن ذلك لا ينافي التوكل على الله لمن اعتقد أنها بإذن الله وبتقديره، وأنها لا تنجع بذواتها بل بما قدره

---

[7] - 1 / 266

[8] - 10 / 135

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QURANIC THOUGHT

الله تعالى فيها، وأن الدواء قد ينقلب داء إذا قَدّر الله ذلك، وإليه الإشارة بقوله في حديث جابر: (بإذن الله)، فمدار ذلك كله على تقدير الله وارادته.

والتداوي لا ينافي التوكل، كما لا ينافيه دفع الجوع والعطش بالأكل والشرب، وكذلك تجنب المهلكات والدعاء بطلب العافية ودفع المضار وغير ذلك.. ويدخل في عمومها أيضا الداء القاتل الذي اعترف حذاق الأطباء بأن لا دواء له، وأقروا بالعجز عن مداواته. ولعل الإشارة في حديث ابن مسعود بقوله: (وجهله من جهله) إلى ذلك، ... ومما يدخل في قوله (جهله من جهله) ما يقع لبعض المرضى أنه يتداوى من داء بدواء فيبرا، ثم يعتريه ذلك الداء بعينه، فيتداوى بذلك الدواء بعينه، فلا ينجع، والسبب في ذلك الجهل بصفة من صفات الدواء، فرب مرضين تشابها ويكون أحدهما مركبا لا ينجع فيه ما ينجع في الذي ليس مركبا، فيقع الخطأ من هنا، وقد يكون متحدا لكن يريد الله أن لا ينجع فلا ينجع ومن هنا تخضع رقاب الأطباء."

وأما ما وقع من أقوال عند بعض التابعين وبعض أهل السلوك من كراهة الأخذ بالاستشفاء، اعتماداً على ماجاء في الحديث الصحيح من وصف للذين يدخلون الجنة بغير حساب بأنهم: الذين لا يرقون، ولا يسترقون، ولا يتطيّرون، وعلى ربهم يتوكلون[9]، فهو من باب الخوف من الركون إلى السبب، لا من باب ترك الأسباب. وهو مأخذ لطيف على الباحث أن يتنبّه إليه.

علم الأجنّة

ومما يتصل بعلم الطب: علم الأجنة . وقد أصبح اليوم علماً قائماً بذاته، ويتكلم فيه الناس عن تحديد جنس الجنين وهو في مراحل التخلق الأولى. وهنا أحب أن أسجل أن السنة النبوية قد أنبأتنا في وقت مبكر جداً يعود إلى خمسة عشر قرناً من الزمن أن الجنين يتم تخلُّقه التام في رحم أمه خلال أربعين يوماً، ففي صحيح مسلم أن عبد الله بن مسعود قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (إذا مر بالنطفة ثنتان وأربعون ليلة بعث الله إليها ملَكا فصورها، وخلق سمعها، وبصرها، وجلدها، ولحمها، وعظامها، ثم قال: يا رب ! أذكر أم أنثى ؟ فيقضى ربك ما شاء ويكتب الملك، ثم يقول: يا رب أجلُه؟ فيقول ربك ما شاء، ويكتب الملك. ثم يقول: يا رب رزقُه؟ فيقضى ربك ما شاء ويكتب الملك. ثم يخرج الملك بالصحيفة في يده فلا يزيد على ما أمر ولا ينقص)[10] . فهل بعد هذه الدلالة من دلالة؟ وهل تعرّف العالم على علم الأجنة إلا في الأزمنة المتأخرة؟ وبناءً على هذا الحديث فإنه يمكن بعد مرور أربعين ليلة على الجنين أن يعرف جنسه لأنه لم يعد غيباً فقد عرفه الملك المولج به، فإذا استطاع الإنسان أن يطور آلة ما يكشف فيها على جنس الجنين في هذه المرحلة لا يكون ممن يحاول معرفة الغيب، لأن الغيب ما غاب عن مدارك الناس، وبدايات التخلق أمر محسوس بنص الحديث الشريف فلا يدخل ضمن عالم الغيب المطلق. بل لعله منذ علوق النطفة في جوف الرحم يمكن ذلك لأنه خرج عن إطار الغيب إلى عالم الشهادة. والله أعلم.

علم الجغرافيا[11]

[9] - ينظر صحيح الإمام مسلم: كتاب الإيمان، باب الدليل على دخول طوائف من المسلمين الجنّة بغير نجاسة ولا عذاب، 1 : 199 ، حديث رقم 220 .
[10] - صحيح الإمام مسلم: كتاب القدر، باب: كيفية خلق الآدمي في بطن أمه. حديث رقم: 2645 .
[11] - ينظر عنه كتاب إرشاد القاصد ص: 79 – 82 .

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ĀNIC THOUGHT

" تعريف علم الجغرافيا:
هو علم بأحوال الأرض من حيث تقسيمها إلى الأقاليم والجبال والأنهار وما يختلف حال السكان باختلافه.
وأصل الكلمة يوناني ومعناها: صورة الأرض.
وهو عند المسلمين من مفردات (علم الهيئة) الذي يشمل: علم الفلك،وعلم الزيجلت والتقاويم، وعلم المواقيت، وعلم كيفية الأرصاد،وعلم تسطيح الكرة، وعلم الآلات الظلية[12].
المسلمون وعلم الجغرافيا:
"ولقد خاض المسلمون في علم الجغرافيا، خوض باحث جاد، وعالم متمكن مطلع خبير، يدفعهم إلى ذلك ما جاء في كتاب الله سبحانه وتعالى من دعوة ملحة وأمر مكرر- في أكثر من موطن - إلى النظر في أمر الأرض: جبالها ووديانها، وسهولها وبحارها، وشرقها وغربها، وأرزاقها ومعادنها، وأجوائها ورياحها.
قال سبحانه:﴿ قل سيروا في الأرض ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين ﴾(الأنعام/11) وأكد ذلك بصورة أخرى فقال:﴿ أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور﴾(الحج/46). وقال سبحانه كذلك :﴿ ألم نجعل الأرض مهاداً والجبال أوتاداً ﴾(النبأ/6-7) وقال سبحانه:﴿ والأرض بعد ذلك دحاها أخرج منها ماءها ومرعاها والجبال أرساها ﴾(النازعات/30-33) وقال: ﴿ والله جعل لكم الأرض بساطاً لتسلكوا منها سبلاً فجاجاً ﴾(نوح/19-20). وأشار جل وعلا إلى الماء واختزان الأرض في باطنها بقوله:﴿ وأنزلنا من السماء ماءً بقدر فأسكناه في الأرض ﴾(المؤمنون/18) وذكر البحار مراراً وتكراراً في مثل قوله:﴿ مرج البحرين يلتقيان بينهما برزخ لا يبغيان ﴾(الرحمن/19).
وذكر بعض ما في البحر من خيرفي قوله ﴿ يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان ﴾(الرحمن/22) وفي قوله ﴿ ومن كل تأكلون لحماً طرياً وتستخرجون حلية تلبسونها ﴾(فاطر/12). "[13]
وعندما ننعم النظر في هذه الآيات سنجدها قد حوت العناصر الأساسية التي تؤلف علم الجغرافيا اليوم.
وبالإضافة إلى الآيات القرآنية جاءت مجموعة من النصوص النبوية فيها دلالات على علم الجغرافيا، منها ما أخرجه البخاري في كتاب (بدء الخلق) من صحيحه[14] ، قال :
- حدثنا محمد بن المثنى :حدثنا عبد الوهاب: حدثنا أيوب، عن محمد بن سيرين، عن ابن أبي بكرة، عن أبي بكرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: (إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض: السنة اثنا عشر شهراً، منها أربعة حُرُم: ثلاثة متواليات: ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان. ففي هذا الحديث تقسيم السنة إلى اثني عشر شهراً، وهو من مفردات علم الجغرافيا.
وقال البخاري رحمه الله تعالى:
3026 حدثني عبيد بن إسماعيل :حدثنا أبو أسامة، عن هشام، عن أبيه، عن سعيد بن زيد بن عمرو ابن نفيل، أنه خاصمته أَرْوَى ،في حق زعمت أنه انتقصه لها، إلى مروان، فقال سعيد: أنا أنتقص من حقها شيئاً؟ أشهد لسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (من أخذ شبراً من

[12] - ينظر المرجع السابق نفسه.
[13] - مقتبس عن مقالة نشرت على موقع ikhwanonline.net .
[14] - 3 : 1165 .

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QURANIC THOUGHT

الأرض ظلماً فإنه يُطَوَّقُه يوم القيامة من سبع أرضين) . ففيه إشارة إلى طبقات الأرض، وإلى عظم سماكتها وسحاقة جوفها، لأن العدد(7) يطلق عند العرب عادة على الشيئ الكثير، فإن أريد به في الحديث هذا المعنى فهو لا مفهوم له. وإن أريد به المفهوم فتكون الأرض مرتبة إلى سبع طبقات كل طبقة يطلق عليها (أرض) . والله أعلم.

ثم ذكر الإمام البخاريُّ باباً خاصاً بالنجوم، ذكر فيه أن قتادة بن دِعامة السدوسي قال: " ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح. خلق هذه النجوم لثلاث جعلها زينة للسماء ورجوما للشياطين وعلامات يهتدى بها فمن تأول فيها بغير ذلك أخطأ وأضاع نصيبه وتكلف مالا علم له به.

وباباً في صفة الشمس والقمر وأنهما (بحسبان)، ذكر فيه قال مجاهد: كحسبان الرحى. وقال غيره: بحساب ومنازل لا يعدوانها.

والحُسْبان، بالضم : الحساب . يقال : حَسب يحُسب حُسبانا وحِسبانا[15].

وفي اللسان[16]: " الحُسْبانُ، بالضم: الحِسابُ. وفي التنزيل: الشمس والقَمَرُ بِحُسْبانٍ ، ومعناه بِحِسابٍ ومَنازِلَ لا يَعْدُوانِها. وقال الزجَّاج: بحُسْبانٍ يدل على عَدَد الشهور والسنين وجميع الأَوقات. وقال الأَخفش في قوله تعالى: والشمسَ والقَمَر حُسْباناً : معناه بِحِسابٍ، فحذَف الباءَ. وقال أَبو العباس: حُسْباناً مصدر، كما تقول: حَسَبْتُه أَحْسُبُه حُسْباناً و حِسْباناً؛ وجعله الأَخفش جمع حِسابٍ؛ وقال أَبو الهيثم: الحُسْبانُ جمع حِسابٍ وكذلك أَحْسِبةٌ، مِثْل شِهابٍ وأَشْهِبةٍ وشُهْبانٌ ".

فهذا كلُّه من مفردات علم الفلك الذي يندرج عند علمائنا تحت (علم الهيئة).

جغرافية الأماكن عند بعض الصحابة رضوان الله تعالى عليهم

ومن لطائف التصوير الجغرافي ذلك الوصف الدقيق الذي جاء عن سيدنا عبد الله بن عمر رضي الله عنهما لطريق النبي صلى الله عليه وسلم بين مكة والمدينة في الحج وفي العمرة وفي الغزو، وللأماكن التي كان ينزل بها النبي صلى الله عليه وسلم.

أخرج الإمام البخاري في كتاب المساجد من صحيحه : باب المساجد التي على طرق المدينة..

عن نافع، أن عبد الله بن عمر، رضي الله عنهما، أخبره: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان ينزل بذي الحليفة حين يعتمر وفي حجته حين حج تحت سَمُرَةٍ[17] في موضع المسجد الذي بذي الحليفة. وكان إذا رجع من غزو كان في تلك الطريق[18]، أو حجٍ أو عمرةٍ، هبط من(بطن وادٍ)[19]، فإذا ظهر من (بطن وادٍ) أناخ (بالبطحاء) التي على (شفير الوادي الشرقية) فعرَّس[20] ثَمَّ حتى يصبح، ليس عند (المسجد الذي بحجارةٍ) ولا على (الأكمة)[21] التي عليها المسجد، كان ثَمَّ (خليجٌ)[22] يصلي عبد الله عنده في بطنه (كُثُبٌ) كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ثَمَّ يصلي، فَدَحا[23] السيلُ فيه (بالبطحاء) حتى دفن ذلك المكان الذي كان عبد الله يصلي فيه.

وأن عبد الله بن عمر حدثه أن النبي صلى الله عليه وسلم صلى حيث المسجد الصغير الذي دون المسجد الذي(بشَرَفِ الروحاء)[24]، وقد كان عبد الله يُعَلِّم المكان الذي كان صلى فيه النبي

---

[15] - ينظر النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير الجزري 1 : 383 .

[16] - مادة (حسب) 1 : 314 .

[17] - أي شجرة ذات شوك .

[18] - أي طريق ذي الحليفة.

[19] - أي وادي العقيق .

[20] - أي نزل للإستراحة .

[21] - هو الموضع المرتفع على ما حوله. وقيل : هو تل من حجر واحد .

[22] - واد له عمق.

[23] - أي : دفع .

[24] - هي قرية جامعة على ليلتين من المدينة، وهي آخر السيالة للمتوجه إلى مكة، والمسجد الأوسط هو في الوادي المعروف الآن- القرن التاسع- بوادي بني سالم.

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QURANIC THOUGHT

صلى الله عليه وسلم يقول : ثَمَّ عن يمينك حين تقوم في المسجد تصلي، وذلك المسجد على حافة الطريق اليمنى وأنت ذاهب إلى مكة، بينه وبين رمية بحجر أو نحو ذلك.

وأن ابن عمر كان يصلي إلى العِرْقِ[25] الذي عند منصرف الروحاء، وذلك العرق انتهاء طرفه على حافة الطريق دون المسجد الذي بينه وبين المنصرف وأنت ذاهب إلى مكة، وقد ابتُنِيَ ثَمَّ مسجد فلم يكن عبد الله يصلي في ذلك المسجد، كان يتركه عن يساره ووراءه ويصلّي أمامه إلى العِرقِ نفسه، وكان عبد الله يروح من الروحاء فلا يصلي الظهر حتى يأتي ذلك المكانَ فيصلي فيه الظهر، وإذا أقبل من مكة فإن مرَّ به قبل الصبح بساعة أو من آخر السحر عرَّس حتى يصلي بها الصبح.

وأن عبد الله حدثه أن النبي صلى الله عليه وسلم كان ينزل تحت سرحة ضخمة[26] دون الرُّوَيْثَة[27] عن يمين الطريق ووِجاهَ الطريق في مكانٍ بَطْحٍ[28] سهلٍ حتى يفضيَ من أكمةٍ دُوَيْنَ بريد الرويثة بميلين[29] وقد انكسر أعلاها فانثنى في جوفها وهي قائمة على ساق وفي ساقها كثب كثيرة .

وأن عبد الله بن عمر حدثه أن النبي صلى الله عليه وسلم صلى في طرف تَلْعَةٍ[30] من وراء العَرْجِ[31] وأنت ذاهب إلى هضبةٍ عند ذلك المسجد قبران أو ثلاثة على القبور رَضْمٌ من حجارة عن يمين الطريق عند سَلِماتِ الطريق[32]، بين أولئك السَّلِمات كان عبد الله يروح من العَرْجِ بعد أن تميل الشمس بالهاجرة فيصلي الظهر في ذلك المسجد.

وأن عبد الله بن عمر حدثه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نزل عند سَرَحاتٍ[33] عن يسار الطريق في مسيل[34] دون هَرْشى[35]، ذلك المسيلُ لاصقٌ بكُراعِ هرشى[36] بينه وبين الطريق قريبٌ من غَلْوَةٍ[37]، وكان عبد الله يصلي إلى سرحةٍ هي أقرب السرحات إلى الطريق وهي أطولهن.

وأن عبد الله بن عمر حدثه أن النبي صلى الله عليه وسلم كان ينزل في الْمَسيلِ الذي في أدنى مرِّ الظَّهران[38] قِبَلَ المدينة حين يهبط من الصَّفْراوات[39] ينزل في بطن ذلك المسيل عن يسار الطريق وأنت ذاهب إلى مكة ليس رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين الطريق إلا رميةٌ بحجر.

وأن عبد الله بن عمر حدثه أن النبي صلى الله عليه وسلم كان ينزل بذي طُوًى ويبيت حتى يصبح يصلي الصبح حين يَقْدَمُ مكة ومصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك على أكمة غليظة ليس في المسجد الذي بُنِيَ ثَمَّ ولكن أسفل من ذلك على أكمة غليظة.

وأن عبد الله حدثه أن النبي صلى الله عليه وسلم استقبل فُرْضَتَيْ الجبل الذي بينه وبين الجبل الطويل نحو الكعبة فجعل المسجد الذي بُنِيَ ثَمَّ يسار المسجد بطرف الأكمة ومصلى النبي صلى

---

[25] - أي عرق الظبية، وهو واد معروف .
[26] - أي شجرة عظيمة.
[27] - قريةٌ جامعةٌ بينها وبين المدينة سبعة عشر فرسخاً .
[28] - أي واسع .
[29] - أي بينه وبين المكان الذي ينزل فيه البريد بالرويثة ميلان، وقيل : المراد بالبريد سكة الطريق .
[30] - وهي مسيل الماء من فوق إلى أسفل، ويقال أيضاً لما ارتفع من الأرض ولما هبط.
[31] - قرية جامعةٌ بينها وبين الرويثة ثلاثة عشر أو أو أربعة عشر ميلاً.
[32] - أي ما يتفرع منه .
[33] - أي شجرات عظام
[34] - المسيل المكان المنحدر.
[35] - جبل على ملتقى طريق المدينة والشام قريب من الجحفة.
[36] - كراع هرشى : طرفها .
[37] - الغلوة غاية بلوغ السهم، وقيل قدر ثلثي ميل .
[38] - هو الوادي الذي تسميه العامة (بطن مرو) بينه وبين مكة ستة عشر ميلا .
[39] - مكان بعد مر الظهران

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QURANIC THOUGHT

الله عليه وسلم أسفل منه على الأكمة السوداء تدع من الأكمة عشرة أذرع أو نحوها ثم تصلي مستقبل الفرضتين من الجبل الذي بينك وبين الكعبة. انتهى.

يا لهذا القلب الواعي الممتلئ بالحب للنبي صلى الله عليه وسلم لدرجة أن تضبط المواطن والمساجد التي مر بها صلى الله عليه وسلم «موطنا موطنا، صحراء واسعة، وجبال جرداء شاهقة، بَطحانٌ وأودية، آكام وظِراب، وهادٌ وتلال، كيف يحفظها! وكيف يضبطها! وكيف يُعَيِّنهابضبط دقيق ما لا يتصوره جغرافيٌ ولا صاحب خرائط ولا صاحب تاريخ، أُنظُره مرة بعد مرة ، وأَرجِع إليه البصر كرَّة بعد كرة، فهل يتصور في العقول قومٌ أضبط وأشد إحصاءً وأقوى ضبطاً من هؤلاء؟ »[40]

ولو أن مسّاحاً أمسك بأدواته لرسم خريطة تفصيلية لهذه المواقع التي لم يبق منها زمن الحافظ ابن حجر العسقلاني سوى مسجدي ذي الحليفة والمساجد التي بالروحاء يعرفها أهل تلك الناحية[41]، أما اليوم فلا تعرف إلا أماكنها فقط.

علم الفلك

وهو من أجزاء علم الهيئة عند علماء المسلمين، وعلم الهيئة كما عرّفه ابن الأكفاني: « هو علم يُعلم منه أحوال الأجرام البسيطة العلوية والسفلية ، وأشكالها وأوضاعها، ومقاديرها، وأبعاد ما بينها، وحركات الأفلاك والكواكب ومقاديرها» ثم ذكر أن له أجزاء أربعة أصلية: الأول: يبحث فيه عن جملة الأفلاك، ووضع بعضها عن بعض، ونِسَبِها، وبيان أنها متحركة، وأن الأرض ساكنة. الثاني: يتبيّن فيه حركات الأجرام السمائية، وأنها كلها كُرَيَّة، وكم هي؟ وما منها بالإرادة، وما منها بالقسر؟ وجهاتُها، والسبيل إلى معرفة مكان كل واحد من الكواكب من أجزاء البروج في كل وقت، ولواحق الحركات السمائية مثل الخسوف والكسوف وغيرها. الثالث: يبحث فيه عن الأرض المغمور منها والمعمور، والخراب، وقسمة المعمور بالأقاليم، وأحوال المساكن وما يلزمها من الحركة اليومية، وما يتعلق بها من المطالع والمغارب. ومقادير الأيام والليالي. الرابع: يتبين فيه مقادير أجرام الكواكب، وأبعادها، ومساحة الأفلاك. ثم تكلّم عن أهمية هذا العلم ومنفعته، فقال: « ومنفعته في ذاته من شرف موضوعاته ووثاقة أدلته وثبات معلوماته، وبما تعشقه النفس الفاضلة من حسن التخطيط والتعديل، وكمال التصوير والتشكيل. ولذلك جاء في التنزيل الإلهي مثانٍ كثيرة في الحث على النظر في هذا العلم وموضوعاته، وأيضاً بما ينبه القوة الفكرية ، وبالنسبة إلى ضبط أحوال الأزمنة فيما يتعلّق بالعبادات والمعاملات، وأحوال الطب وأحكام النجوم وأعمال السحر والفلاحة. »[42]

أما فيما يتعلق بعلم الفلك فالنصوص فيه كثيرة، وبخاصة أن من الأجرام السماوية ما جُعل علامة على بعض التكاليف الشرعية: كالصوم والحج، فلا غرو أن يهتم المسلمون بهذا العلم وبخاصة عنما قرءوا قول ربهم سبحانه وتعالى: ﴿ يسألونك عن الأهلة قل هي مواقيت للناس والحج﴾ وقوله تعالى : ﴿وعلامات وبالنجم هم يهتدون﴾ . إذن لا بد أن من النجوم ما هو ثابت في مكانه لا يتزحزح حتى يكون علامة يُهتدى بها في البر والبحر، وهذه كلها إشارات معرفية تحمل طالب العلم النهم على البحث والتقصي.

نصوص نبوية:

---

[40] - من مقدمة كتاب (حجة النبي صلى الله عليه وسلم) لخاتمة المحدثين محمد زكريا الكاندهلوي رحمه الله ، ص : 12 .

[41] - ينظر : فتح الباري: 1 / 570 .

[42] - إرشاد القاصد: ص 79 – 80 .

This file was downloaded from QuranicThought.com

وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST FOR QUR'ANIC THOUGHT

ولا يخفى على أي إنسان حديث النبي صلى الله عليه وسلم في صيام رمضان وأنه علَّقه برؤية الهلال، فقال صلى الله عليه وسلم: (صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته، فإذا غُمَّ عليكم فاقدُروا له) وفي رواية : (فأتموا عدة شعبان ثلاثين) . وروايات هذه الحديث كثيرة[43] ، وكلها تثبت أهمية الحساب للقمر ومنازله وأيام شهره من أجل الصوم وهذا كله من مفردات علم الفلك.

وجاء في الحديث أن ابن عباس رضي الله عنهما قال: سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قوله تعالى: ﴿ وبالنجم هم يهتدون ﴾ قال: (هو الجدي يا ابن عباس عليه قبلتكم وبه تهتدون في بركم وبحركم)[44]

وعند الطبري رحمه الله في تأويل قوله تعالى: ﴿ وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون ﴾، قال الطبري: « يقول تعالى ذكره: والله الذي جعل لكم أيها الناس النجوم أدلة في البر والبحر إذا ضللتم الطريق أو تحيرتم فلم تهتدوا فيها ليلا تستدلون بها على المحجة فتهتدون بها إلى الطريق والمحجة فتسلكونه وتنجون بها من ظلمات ذلك كما قال جل ثناؤه : ﴿ وعلامات وبالنجم هم يهتدون﴾ أي من ضلال الطريق في البر والبحر وعنى بالظلمات ظلمة الليل وظلمة الخطأ والضلال وظلمة الأرض أو الماء. وقوله: ﴿ قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون﴾ يقول: قد ميزنا الأدلة وفرقنا وبيناها أيها لناس ليتدبرها أولو العلم بالله منكم ويفهمها أولو الحجاج منكم فينيبوا من جهلهم الذي هم عليه مقيمون وينزجروا عن خطأ فعلهم الذي هم عليه ثابتون ولا يتمادوا عنادا لله مع علمهم بأن ما هم عليه مقيمون خطأ في غيهم »[45]

وقال في تأويل قوله تعالى: ﴿ وعلامات وبالنجم هم يهتدون﴾ : « اختلف أهل التأويل في المعنى بالعلامات، فقال بعضهم: عني بها معالم الطرق بالنهار » ثم نقل عن ابن عباس قوله: « وعلامات وبالنجم هم يهتدون يعني بالعلامات معالم الطرق بالنهار وبالنجم هم يهتدون بالليل » ثم قال: «وقال آخرون: عني بها النجوم ، ونقل عن ابراهيم النخعي قوله: وعلامات وبالنجم هم يهتدون : قال منها ما يكون علامات ومنها ما يهتدون به »[46].

ومراجعة كتب التفسير تعطينا نصوصاً كثيرة ، ولكن البحث هنا مبني على الاختصار لا على التفصيل. ولذلك أكتفي بهذه الإشارات ، ولعل الله سبحانه يُفسح في العمر لمتابعة أكثر تلك الدلالات فهو سبحانه من وراء القصد وهو يهدي السبيل.

---

[43] - ينظر: صحيح البخاري الأحاديث من 1807 إلى 1812 .
[44] - ينظر تفسير القرطبي: 10 / 92 .
[45] - تفسير الطبري 7 / 286 .
[46] - ينظر تفسير الطبري 14 / 91 .

This file was downloaded from QuranicThought.com